نحو ثقافة "بديلة"

ماجد السامرائي

١ ـ إنّ السؤال كبير ومتسع.. وهو يدعو الى «تشخيص» الحاضر، وفي الوقت ذاته «مراجعة» الماضي «واستشراف» المستقبل... وهي أزمنة متداخلة ببعضها.. واحدها يكمل الآخر ويؤكد حقيقته، كما يؤكد وجود «المحور» الذي يتوزع على هذه الأزمنة.. وهو: المثقف العربي..

معنى هذا أن للمثقف العربي في عمرنا دوراً ريادياً..

والسؤال يفترض أن لهذا المثقف «دوراً» و «أثراً» خطيراً في مسار الحياة، وفي حركة التاريخ الانساني، وفي تشكيل «الرؤية الزمانية» لانساننا، وفي تأكيد الحقيقة الحضارية لعصرنا.

غير أنّ هذا «الدور» غالباً ما كان في أحد مأزقين (لهما خصوصيتهما العربية!):

ـ فإما المساومة على هذا الدور ـ تخلياً، أو تغييراً وتغيّراً ـ حيث مسخ هذا المثقف شخصيته، وتضاءل بدوره الى حدود جعلت منه «شخصية مستلبة».

ـ وإما المصادرة.. حيث كان هذا «النمط المساوم» عاملاً من عوامل المصادرة هذه في ظلّ أنظمة تميل الى «اللا ـ ديمقراطية» ـ بل وتنحاز ـ ويستفزها «الرأي الآخر»، أو العزف على غير نغمتها.

٢ ـ ما حدث في لبنان.. وما حدث للبنان أسقط الكثير.. كما أكّد الكثير:

ـ كان أول ما اسقطه هو «فصاحة الكذب» التي اشتهر بها العديد من الأنظمة العربية.. وأسقط الكثير من الأفكار التي تحاول هذه الأنظمة فرضها على شعبها ـ وهي أفكار عسيرة على ذاته.

ـ وأسقط «عهد الوصاية»، سواء منها الوصاية على القضايا المصيرية للأمة، أم الوصاية على المقاومة الفلسطينية، أم على شعب لبنان نفسه..

سقطت هذه جميعاً، وأثبتت زيفها وكذبها. وهي إنْ بدت «تقاوم» هذا السقوط في محاولة منها للإبقاء على وجودها المتهريء، فإنّ ذلك من الأمور التي انتهى حكم الزمن فيها وعليها.

أما أبرز ما أكّده فهو أن تخلّي الشعب عن دوره و «نيابة الأنظمة»، التي لا تمثله، عنه في كل قضاياه المصيرية قد قاد الامة الى مثل هذه الكوارث، التي سبقها طوفان من «الكذب المؤدلج» الذي أرادت به اجتياح عقولنا..

ـ كما أكد أهمية الحرية، وخطر اغتيال الحرية..

ـ وان البحث عن الوجاهة، والالتحاق بالسلاطين هو الخطوة الاولى في طريق تحقيق اغتيال كهذا..

فقد ألغى بعض المثقفين والكتاب والأدباء العرب إيمانهم بأن «الانسان كائن حرّ»، وأنّ من حقه ـ بل ومن شروط وجوده، وأساسيات هذا الوجود ـ أن يمارس هذه الحرية.. منكرين (أو متنكرين) للدور المهم للحرية في حياة الانسان، وفي مسار تاريخه، وفي بناء واقعه. فالحرية إمتياز خاص بالانسان.

إنّ حالة الاستتباع التي عاشها عديد من المثقفين والكتاب والأدباء العرب قد خدّرت فيهم الوعي. فمن أين لنا، والحالة هذه، أن ننتظر منهم إحساساً بالحرية ـ والحرية منذ أن وعاها «برغسون» في عصرنا هي «إحدى المعطيات المباشرة للوعي»؟

لكننا ينبغي أن لا نلقي بالتبعة كلها على هذا المثقف.. فهو صريع واقع من الارهاب والمصادرة.. وهو ضحية التجويع إذا ما قاوم، والمساومة إذا ما هادن..

وهو مسير لا مخيّر ـ بحكم الارهاب..

ولكن سقطته الكبيرة كانت حين تمادى البعض من المثقفين في مثل هذه المسارات التي كان لها أن صادرت من هذا المثقف دوره، وساعدت على عزل الآخرين عن طريق محاصرتهم والتضييق عليهم باعتبارهم «خارجين» على القطيع..

ولعلّ الفاجع والمأساوي في هذا كلّه هو أن هؤلاء المثقفين والادباء والكتاب الذين نتحدث عنهم، ونخصهم بالحديث، لا هم ضيّقو الأفق، ولا بلهاء.. إنما بينهم مَنْ له في حقل المعرفة والعلم الكثير.. وله مع الكلمة تاريخ من العطاء.

٣ ـ هذه الحالة التي ادركها المواطن العربي في وقت مبكر من «تاريخها» بلغت به حدّ اليأس من كثير من كُتاب عصره.. فواجه بالتشكّك والارتياب الكثير مما كتبوا أو قالوا، ذلك لأن هذا الذي كتبوه أو قالوه لم يكن صادراً عن الحياة التي يعيش ويعرف، ولا صلة له بها أو أثر.

٤ ـ من هنا كانت «العودة الى التراث» في السنوات التي أعقبت حزيران ١٩٦٧ عنيفة وحادة... فهي، في وجه من وجوهها، تمثّل يأساً من الحاضر، واحتجاجاً على كثير مما يقال فيه أو يكتب..

وعلى الرغم من أن هذا «التراث» كان في معظمه إنّما يعبّر عن غلوّ في المجردات، ويسلك طرقاً ملتوية الى الحقيقة ـ لأنه هو نفسه لم يكن حراً أو متحرراً من جمود عصره وضيق صدره ـ وهي عقلية ميّالة الى المذاهب الضافية... إلاّ أنه، بالرغم من هذا كان يخلق كوناً من الفكر الانساني، كان في حقيقته وزيفه، وفي جرأته وجبنه، وفي علوّه وتهاويه وانسحاقه قد رسم معالم زمن بمقدورنا أن نحاكمه كما نشاء، ونتحدث عنه بما نشاء. وهكذا كان كثير ممن كتبوا عن التراث وفيه إما هجّائين للحاضر العقيم موقفاً، أو رثائين لزماننا الذي شاخ وهو لّما يزل في فجر الولادة، أو باحثين عن عزاء لهم في محنتهم الفكرية التي يعيشون. فكان الموقف ـ في أيّ وجه من هذه الوجوه الثلاثة جاء ـ موقفاً فاجعاً.. وكانوا، بهذا، معبّرين عن تجربة مأساوية هي تجربة عصرنا، وتجربة إنساننا فيه..

ولم تكن هذه سوى تعبير عن هزيمة العقل العربي في الحاضر، وعدم القدرة على مواجهته مواجهة صريحة، واضحة وجريئة. فقد استعاض المثقف العربي عن «التضحية» بـ «القناع».

٥ ـ هل هذا الذي نقول «ينقض ثقافة» ويدعو الى «ثقافة بديلة»؟

إنه كذلك..

ـ فهو ينقض ثقافة هرمة، عاشت على الوهم، وتربّت داخل الوهم وكرسته.. وعملت على نفي الحقيقة من محيط انساننا.

ـ ويدعو الى «ثقافة بديلة» متحررة من الوهم، بعيدة عن سلطته.. ثقافة مصدرها الواقع.. تحمي نفسها من مغبّة السقوط الحضاري.

فأخطر ما يواجه المثقف العربي اليوم، كما يواجه الثقافة هو:

ـ استشراء سلطة الوهم..

ـ التسليم بالأمر الواقع، وغياب صوت الاحتجاج..

ـ وإعلان الذهنية الثقافية العربية عن عجزها على المواجهة.

فما حدث إنْ هو إلاّ إمتحان عسير لنا كشعب وأُمة، ولكلمتنا في التاريخ.

إنّ مشكلة البعض كانت انتهازية الموقف، ونموّ حسّ التملّق والرياء عندهم..

ومشكلة البعض الآخر كانت الخوف وما يتولد عنه ـ حين يستشري في النفوس ـ من حالات استلاب ويأس وانزواء.

ومشكلة البعض الثالث كانت المواربة: فهم في الوقت الذي يسعون فيه الى إرضاء «البعض» لا يجد «الآخرون» مايعترضون عليه في ما يقولون ويكتبون أو يفعلون.

ـ فالبعض كانوا على دين ملوكهم..

ـ والبعض الآخر على دين مرضعاتهم..

ـ بينما زعق بعض ثالث بالبطولة، مع الابقاء على «طاعة الأحكام» و «الولاء للحكام» الذين أبرزوا من أنفسهم «أصلاً» للأشياء، كما هم مصدر للسلطات.

كل هذا في وقت كانت فيه المحاصرة تزداد، ويزداد معه تغرّب إنساننا الذي قذفوا به الى صحراء من اليأس القاتل..

وبفعل هذا «العرف» أصبح أتفه الثرثارين أُدباء وكتاباً مبدعين..

٦ ـ إنّ أخشى ما أخشاه، إذا ما تواصل السير على مثل هذه الطريق، هو أن يجد ذلك التعريف للانسان بأنه «حيوان ناطق» معناه الدقيق فينا..

فلقد أخجلوا آباءنا أمامنا عند الاجتياح الاول عام ١٩٤٨..

وأخجلوا جيلنا أمام الآباء عند الاجتياح الثاني عام ١٩٦٧..

وأخجلوا جيلنا، ثانية، أمام أبنائه عند الاجتياح الثالث هذا للبنان ـ الذي بدأ عام ١٩٨٢..

تُرى.. ماذا سيحدث غداً؟

وهل ستكون بعض الأنظمة (المتهاونة ـ المتعاونة) قادرة على حماية أسوار سلطتها؟

مساعِدَةً أو مستعصية ـ لليمين، استعماراً كان أم رجعية متخلّفة أم همجية عنصرية حاقدة على العروبة وجوداً وتاريخاً، هم في حقيقتهم وطبيعة دورهم ليسوا اكثر من «حُجّاب للامبريالية» في المنطقة. فدورهم واضح.. ألا وهو: محاصرة وضرب ـ أو المساعدة في محاصرة وضرب كل البؤر الثورية الفعلية في هذا الوطن المبتلى بالتابعين والعملاء.

٧ ـ لعلّ هذا الذي قلته يؤشر «نقاط الإدانة» اكثر مما «يرسم المسار» لأدب جديد، أو ثقافة عربية جديدة علينا أن نصرخ، بكل ما فينا من صوت، من أجل التأسيس لها وإرساء قيمها وتأكيد منطلقاتها..

إننا بحاجة الى أن نصرخ بما في أعماقنا من وجع. والادانة هي البدء لكل طريق مستقبلي نريد أن نختطه. ومع صوت الإدانة هذا، علينا:

ـ أن نتحرّر من الخوف..

ـ ونؤمن بالانسان ـ إنساننا الذي صادروا منه الحاضر، ويسعون الى تأمين مصادرة المستقبل.

بغداد

الدكتور عبد العزيز المقالح

من البيت إلى القصيدة

دار الآداب

صدر حديثا